خامسا : الشكل والإعجام في الكتابة العربية

كانت الكتابة العربية في عامتها خالية من الشكل والإعجام قبل العصر الأموي ، وكانت الذاكرة هي عماد الثقافة والتحصيل ، وبقيت كذلك في كثير من العلوم ردحا من الزمن ، فلما كثرت الكتابة وزادت الحاجة إليها ، صار الاعتماد على الكتابة وضعفت الذاكرة بكثرة التقييد .

وفي العصر الأموي كثرت الفتوح ، ودخلت في الإسلام أمم من الفرس والروم والبربر والهنود والحبش والقبط ، فاختلطت الألسنة وشاع اللحن وكثر التصحيف والتحريف ، وشمل ذلك كتاب الله تعالى ، فكانت الحاجة إلى ضوابط لتقييد القراءة وإزالة اللبس والوهم والخطأ ، فظهر الشكل والإعجام في الكتابة العربية ، وعلى هذا الأساس يرى كثير من الباحثين أن الشكل والإعجام دخيلان على الكتابة العربية وحديثان لم يعرفا قبل ظهور الإسلام ، وذلك لغياب الأدلة المادية الواضحة ، فالخط النبطي الذي هو أصل الكتابة العربية كان خاليا من الشكل والإعجام بحسب ما وصلنا من نقوش كتابية ، لكن يرى فريق آخر من الباحثين استنادا على بعض المرويات العربية وبعض الحجج المنطقية أن علامات الشكل والإعجام كانت موجودة قبل مجيء الإسلام بفترة طويلة ، بل أنها ظهرت مع ظهور الكتابة نفسها ، لكنها لم تكن شائعة ومتداولة كثيرا ، فلما جاء الإسلام أعيد إحياؤها حفظا لكتاب الله من التحريف والتصحيف .

1 - الشكـــــل :

ويراد بالشكل إدخال حركات الإعراب على الحروف من رفع ونصب وكسر وسكون ... ، وهو مأخوذ من شكل الدابة ، وهو شد قوائمها بالشكال وهو الحبل أو العقال ، فتضبط الحروف بالشكل كما تضبط قوائم الدابة بالشكال فيمنع هروبها .

وقد عرف الشكل في لغات أخرى قبل العربية ، وهي السريانية والعبرية ، وقد استعمل السريان الشكل في لغتهم بعدما دخلوا في النصرانية ونقلوا الكتب الدينية إلى لغتهم فخشوا اللحن في قراءتها ، وقد انتشر عندهم في القرن السادس على يد يوسف الأهوازي (ت 580 م) ، ثم زاد فيه وطوره يعقوب الرهاوي (ت 705 م) .

وفي العبرية استعمل اليهود في لغتهم الحركات في القرنين الخامس والسادس ميلادي ، وهي نقط توضع فوق الحرف أو تحته ، لتمثل الفتحة والضمة والكسرة والشدة والمدة والوصل ، وقيل أنهم اتخذوا أول الأمر بعض الحروف ، كالألف والهاء والياء لتقوم مقام الحركات ، إلا أنهم

سرعان ماتركوها ، وذلك لما تسببه من تغيير في هجاء الكلمات ، ومن زيادة في عدد الحروف ، ثم اتخذو النقط فوق الحرف أو تحته لتمثل الحركات .

أما الكتابة العربية فقد تطورت عن النبطية التي كانت خالية من علامات الشكل ، ويبقى الاحتمال أن العرب قلدوا السريان أو اليهود في اتخاذ علامات الشكل ، خصوصا وأنه كان منهم من يعرف السريانية والعبرية منذ زمن النبي (صلعم) ، فقد تعلم زيد بن ثابت السريانية بأمر النبي (صلعم) ، ويورد البعض روايات تدل على أن نقط الشكل كانت معروفة من زمن الصحابة ، وقد استخدموها في بعض مصاحفهم ، ثم كرهها بعضهم فتركت .

وتذكر الكثير من المصادر العربية أن أبا الأسود الدؤلي (ت 67 هـ) هو أول من وضع نقط الإعراب ، وتورد في ذلك روايتين ، الأولى أنه سمع ابنته تقول "ما أحسن السماء" برفع النون ، فقال كان عليك أن تقولي ما أحسن بفتح النون وتفتحي فاك ، فلما أصبح ذكر ذلك لعلي بن أبي طالب فعلمه أبوابا من النحو منها باب إنّ وباب الإضافة وباب الإمالة ، وقال له انح هذا النحو يا أبا الأسود ، فاشتغل بوضع أبواب أخرى في النحو منها أبواب العطف والتعجب والاستفهام ، واشتهر بعد ذلك أبو الأسود بعلم اللغة العربية .

أما الرواية الثانية فتذكر أن زياد بن أبيه والي البصرة طلب من أبي الأسود أن يضع طريقة لإصلاح الألسنة عند القراءة فتردد أبو الأسود ولم يجبه لذلك ، ثم سمع في طريقه من يقرأ " إن الله بريء من المشركين ورسوله " بكسر اللام ، فعظم ذلك على أبي الأسود وقال عز وجه الله أن يبرأ من رسوله ، فعاد إلى زياد وقال قد أجبتك إلى ما سألت ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن ، فابغني كاتبا ، فبعث له ثلاثين كاتبا اختار منهم واحدا ، وأخذا مصحفا ومدادا مخالفا لمداد المصحف ، وقال للكاتب إذا رأيتني فتحت شفتي بالحرف فانقط واحدة فوقه ، وإذا كسرتها فانقط واحدة أسفله ، وإذا ضممتها فاجعل النقطة بين يدي الحرف ، فإن تبعت شيئا من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين ، واستمر على ذلك حتى أتم نقط المصحف .

ثم جاء تلاميذ أبي الأسود من بعده فزادوا وحسنوا وطوروا في طريقته وأشهرهم نصر بن عاصم الليثي (ت 89 هـ) ، ويحيى بن يعمر العدواني (ت 129 هـ) ، وزاد فيها وحسنها الخليل الفراهيدي في العصر العباسي ، واستبدلت النقاط بعلامات أخرى للتفريق بينها وبين نقط الإعجام ، واستمرت علامات الشكل في التطور حتى استقرت إلى ما وصلت عليه اليوم .

2 - الإعجام :

الإعجام لغة هو إزالة استعجام الكتاب بالنقط ، والإعجام في الخط هو التنقيط ، والإعجام هو وضع النقط على الحروف ، وبالنقط تتميز الحروف المتشابهة في الصورة كالجيم والحاء والخاء فلا يقع اللبس في نطقها ، وعموما فالمشهور في المصادر أن اختراع نقط الإعجام كان زمن عبد الملك بن مروان (65-86 هـ) ، وقد نقطت بنفس مداد الكتابة عكس نقط الشكل ، لكن المخالفين لهذا الرأي كثر ، ويرون أن هذه الظاهرة كانت موجوة من قبل لكن لم يكن الالتزام بها دائما في الكتابة ، ولم يكن عاما لكل الكلمات والحروف ، بل فقط تلك التي يمكن أن يقع اللبس في قراءتها ، وأن ماحدث في العهد الأموي هو إعادة إحياء لهذه الظاهرة فقط ، للضرورة الملحة خاصة مايتعلق بقراءة المصحف .

ولا شك أن الاهتمام بالإعجام كان نتيجة لشيوع التصحيف ، وكانت المصاحف مجردة من الإعجام ، ومكث الناس يقرؤون في مصحف عثمان نيفا وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك ، ثم كثر التصحيف وخاصة في العراق ، مما أفزع الحجاج والي العراق فطلب من كتابه وضع العلامات على الحروف المشتبهة ، وقيل أن أول من نقط المصحف هو نصر بن عاصم وقيل يحيى بن يعمر ، وهناك من يرى أنهما ربما نقطا المصحف ولم يبتكرا الإعجام الذي هو أقدم من ذلك .

وتأتي الإشارات والدلائل على وجود الإعجام بدءا بزمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقد روي عنه أنه قال *"إذا اختلفتم في الياء والتاء فاكتبوها بالياء"* ، ونقل عن عبد الله بن عباس قوله *"لكل شيء نور ونور الكتاب العجم"* ، وجاء عن عبيد بن أوس الغساني كاتب معاوية قوله *"كتبت بين يدي معاوية كتابا فقال لي :يا عبيد أرقش كتابك ، فإني كتبت بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال :يا معاوية أرقش كتابك ، قال عبيد :وما رقشه يا أمير المؤمنين ، قال اعط كل حرف ما ينوبه من النقط"*.

ثم تظهر أدلة أخرى على وجود الإعجام من عصر الخلفاء الراشدين مثل بردية عمر سنة 22 هـ ، وفي العهد الأموي أدلة أخرى منها نقش سد معاوية المؤرخ بسنة 58 هـ والذي تظهر فيه بعض الحروف معجمة ، ونقش حفنة الأبيض المؤرخ بسنة 64 هـ ، وكتابة قبة الصخرة المؤرخة بسنة 72 هـ ، مع العلم أن هناك كثيرا ممن خالفوا في هذه الكتابات السابقة وقالوا أنها خالية من أي إعجام .